من النصوص الآبائية

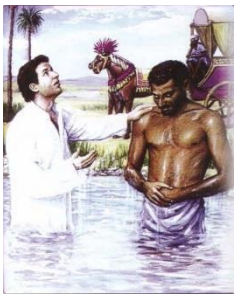

رداء المجد

للقديس مار أفرآم السرياني[(١)]

+ «لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ» (غل ٣: ٢٧)

كتب القديس أفرآم السرياني في إحدى أناشيده عن ميلاد المسيح بخصوص التجسُّد ومفاعيله بالتعبيرات الآتية:

[جميع هذه التغييرات صنعها الرحوم،
وهو متعرٍّ من المجد لابسًا جسدًا،
لأنه ابتكر طريقةً يكسو بها آدم مرةً أخرى،
بذلك المجد الذي تعرَّى منه آدم.
التـفَّ المسيح بالأقماط،
مقابل أوراق الشجر التي تغطَّى بها آدم.
ارتدى المسيح ملابس عوضًا عن جلود آدم،
فقد تعمَّد من أجل خطية آدم،
وضُمِّخ جسده (بالحنوط) من أجل موت آدم،
ثم قام وأقام آدم في مجده.
مباركٌ هو ذاك الذي نزل ولبس آدم وصعد!!] (On Nativity, 23: 13)

---

(١) أُعدَّ هذا المقال بالاستعانة بكتاب:
Sebastian Brock.*The Luminous Eye, the Spiritual World Vision of St. Ephrem*, 1985, pp. 65-76.

هكذا غطَّى مار أفرآم تدبير الخلاص بأكملهِ في مقطع واحد من القصيدة مستخدمًا أسلوبه المجازي المحبوب في تعبيراته: "لابسًا" و"خالعًا" الملابس. بسقوط آدم تعرَّى من المجد، أي من "**رداء المجد**"، ولكن تأثير السقوط قد انقلب بواسطة الكلمة الإلهي الذي "تعرَّى من مجده"، و"لبس جسدًا"، أو كما ذَكَرَ في آخر المقطع: "لبس آدم"، أي البشرية، وهكذا رفع البشرية إلى حالتها الأصلية ملتحفةً بـ"**رداء المجد**".

بواسطة هذا الأسلوب المجازي لارتداء الملابس، نجح مار أفرآم في إمداد قُرَّائه بصورة مُتماسكة رائعة لتدبير الخلاص وتاريخه برُمَّته، منذ الخلق والسقوط، ثم التجسُّد الذي أدَّى إلى السرائر وبالأخص سرَّي المعمودية والإفخارستيا، وحتى القيامة النهائية. لقد زُوِّدت هذه السلسلة المتصلة بمعنى "**رداء المجد**" الذي يسميه مار أفرآم أحيانًا "رداء النور".

الرداء الأصلي:

جديرٌ بنا أن نتأمل باختصار في فكرة "رداء المجد أو النور" هذا الذي التحف به كلٌّ من آدم وحواء أصلًا، ومن الواضح أن ق. أفرآم والمسيحية السريانية بصفةٍ عامةٍ قد ورثت فكرة هذه الصورة الأصلية لـ"رداء النور" أو "رداء المجد" التي كانت مألوفة جدًّا في التفسيرات اليهودية للآية تك ٣: ٢١: «وَصَنَعَ الرَّبُّ الإِلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا». وقد انتشر هذا التفسير وتداول عندما بدأت المسيحية في الانتشار.

وقد سأل الشُّرَّاح القدماء أنفسهم: "ماذا كانت هذه الأقمصة أو الملابس"؟ ونحن نواجه عدة أجوبة مختلفة على هذا السؤال عند كلٍّ من اليهود والمسيحيين. ولكننا وجدنا لأجل موضوعنا هذا تفسيرَين في مصادر يهودية لهما مغزًى هام بخصوص موضوع "**رداء المجد**" الأصلي:

التفسير الأول: إذا رجعنا إلى تقليد الترجوم[٢] نكتشف في الآية المذكورة بدلًا من

(٢) هو الترجمة الأرامية للعهد القديم ولاسيما التوراة، كما كانت تُقرأ شفاهًا في المجمع أيام الهيكل الثاني وبعد ذلك. وذلك بحسب التفسير التقليدي الذي كان مقبولًا بصفة عامة، وقد بدأت النسخ المدونة من الترجوم تنتشر ابتداءً من القرن الثاني الميلادي.

"أقمصة من جلد" كما في اللغة العبرية: "**رداء مجد**"، وهي التي استعملها مار أفرآم وكُتَّاب سريانيون آخرون.

التفسير الثاني: إذا رجعنا إلى "مدراش ربَّا"[٣] اليهودي عن التكوين نجد أن الرابِّي المشهور في القرن الأول المسيحي واسمه "رابِّي ميرا"، كان معروفًا بأنه يمتلك مخطوطة عبرية للتوراة بها الآية المذكورة هكذا: "ملابس من نور" (حيث يوجد اختلاف في حرف عبري واحد بين تعبيري "من جلد" و"من نور").

وقد أشار مار أفرآم كثيرًا إلى رداء المجد الأصلي في شرحه لسفر التكوين، ولا سيما فيما يتعلَّق بالآية: ٢: ٢٥: «وَكَانَا كِلَاهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لَا يَخْجَلَانِ»، وهنا يقول القديس في شرحه:

[إنهما كانا لا يخجلان بسبب المجد الذي كانا يرتديانه. وبمجرد أن نُزِعَ منهما هذا المجد، بعد التعدِّي على الوصية، خجلا لأنهما تعرَّيا من المجد، ولذلك أسرع كلاهما إلى أوراق التين لكي يغطِّيا جسديهما ولا سيما أعضاءهما المُخجِلة].

استرداد الرداء:

إن الغرض الكلِّي من تجسُّد المسيح هو إعادة كسوة آدم، أي البشرية، بـ"**رداء المجد**" المفقود هذا، حيث يقول مار أفرآم:

[جاء المسيح لكي يجد آدم الذي ضلَّ،

فقد جاء لكي يُعيده إلى عدن في رداء النور] (عن البتولية ١٦: ٩).

كما يقول في إشارة خاصة لحواء:

[نظرت حواء إلى المسيح، لأن عري النساء كان عظيمًا،

والمسيح هو الذي استطاع أن يُعيد كسوتهنَّ،

---

(٣) المدراش هو تفسير للعهد القديم انبثق من المدارس الربّينية في فلسطين القديمة. والهدف منه توضيح المعنى العميق للنص الكتابي لكي تُستَخرَج منه شرائع ومبادئ عقائدية وأدبية. أما "مدراش ربَّا" فهو أكثر نُسَخ المدراش المألوفة شعبيًّا.

فقد كُنَّ قد تعرَّينَ من المجد،

وهكذا حلَّ المجد مكان أوراق التين] (عن الميلاد١: ٤٣).

وقد التقط مار أفرآم موضوع أوراق التين المذكورة في تك ٣: ٧ وقال عنها:

[عندما أخطأ آدم وتعرَّى من المجد الذي كان قد اكتسا به، غطَّى عُريه بأوراق تين، وجاء مُخلِّصنا وتحمَّل الآلام لكي يشفي جراح آدم ويزوِّده برداء مجد لعريه. وقد جفَّف شجرة التين (مت ٢١: ٢٠، ٢١) لكي يُظهِر أنه لم تَعُد ثمة حاجة لأوراق تين لتكون رداءً لآدم حيث إن آدم قد عاد إلى مجده السابق، وهكذا لم تَعُد هناك أي حاجة لأوراق أو "أقمصة من جلد"] (شرح الدياتسارون ١٦: ١٠).

كما يقول في مكان آخر:

[مباركٌ هو الذي تحنَّن على أوراق آدم

وأرسل إليه رداء مجد ليُغطِّي حاله المُعرَّى] (عن الصوم ٣: ٢).

وقد لاحظنا عدة مرات أن تعبير "يَلبِس الجسد" هو أسلوب مار أفرآم الاستعاري المفضَّل للتعبير عن التجسُّد، ولكي يُبرز استمرارية تاريخ الخلاص، فهو كثيرًا ما امتدَّ بالصورة لكي تشمل إشارةً خاصةً لآدم فيقول:

[المجد لكَ يا مَنْ اكتسيتَ بجسد آدم المائت،

وبذلك جعلتَ منه ينبوع حياة (أو خلاص) لجميع المائتين] (حديث عن ربنا: ٩).

وينبغي أن نلاحظ كم أنه توجد في ذهن مار أفرآم رباطات مُحْكَمة بين آدم، أي البشرية، والمسيح، وذلك في فقرات مثل الآتية:

[لَبِسَ الرب آدم،

وبواسطته فتح الفردوس بدخوله بقوة] (عن الهرطقات ٢٦: ٦).

وأيضًا:

[بواسطة آدم الثاني الذي دخل الفردوس،

دخل كل واحد إليه،

لأنه بواسطة آدم الأول الذي خرج منه،

كل واحد خرج منه] (عن الخبز غير المختمر ١٧: ١٠).

كذلك، فكما أن الله الكلمة "لبس جسد آدم"، هكذا يصفه مار أفرآم كـ"لابس لجسدنا" (عن الكنيسة: ٤٢).

وعندما يتأمل مار أفرآم في "العجب العظيم" من ميلاد الرب، فهو يعرِّف موضوع "**رداء المجد**" بقرينتين مختلفتين:

القرينة الأولى: القديسة مريم أُم المسيح التي كانت هي المائتة الأولى التي اكتست مرةً أُخرى بهذا الرداء. ففي الفقرة التالية كأن القديسة مريم تقول بضمير المتكلم:

[ابن العلي جاء وسكن فيَّ، وأصبحتُ أنا أُمّه.

وكما أعطيتُه أنا هذه الولادة مني،

هكذا هو أيضًا أعطاني ولادةً (أي ولدني) ولادة ثانية،

فقد لَبِسَ رداء أُمّه، أي جسدها،

بينما لبستُ أنا مجده] (عن الميلاد ١٦: ١١).

في هذا المقطع المؤلَّف ببراعة يمكننا أن نلاحظ مرةً أُخرى نموذج التبادل والتكامل الذي يحب مار أفرآم أن يرتاده كثيرًا: فإن ولادة المسيح الأولى من الآب وولادته الثانية من السيدة العذراء، قد وُزنتا هنا بطريقة تقابلية مع الولادة الجسدية للسيدة العذراء وولادتها الثانية، أي معموديتها، التي، كما سنرى، يعتبر مار أفرآم أنها كانت تتم بينما كان المسيح في بطنها.

إن اكتساب القديسة مريم لرداء المجد يُقابَل بصفةٍ خاصةٍ بفقدان حواء له في نشيدٍ آخر للقديس عن الميلاد:

[لَبِسَت حواء في عذراويتها أوراق الخزي،

ولكن والدتك يا رب في بتوليتها،

لَبِسَت رداء مجد يشمل جميع الناس،

في حين أنها أعطت جسدًا كرداء خفيف

لذاك الذي يغطِّي الجميع] (عن الميلاد ١٧: ٤).

القرينة الثانية: رداء مجد السيدة العذراء، الذي شمل جميع الناس، يأتي بنا إلى القرينة الثانية ضمن رواية الميلاد، حيث يقدِّم مار أفرآم معنى الرداء، وذلك فيما يتعلَّق بالأقماط التي لُفَّ بها المسيح الطفل:

[في بيت لحم لبس الملك داود كتانًا رقيقًا،

ولكن رب داود وابنه

خبّأ مجده هناك في أقماطه،

هذه الأقماط بعينها زوَّدت الجنس البشري برداء مجد] (عن الميلاد ٥: ٤).

معمودية المسيح والمعمودية المسيحية:

المرحلة التالية في تاريخ رداء المجد تأتي مع معمودية المسيح في نهر الأردن. وفي الكنيسة السريانية الأولى كان هذا الحدث يُنظَر إليه باعتباره المصدر الرئيسي للمعمودية المسيحية كلها، فإن المسيح في الأردن "افتتح سر المعمودية" (عن البتولية ١٥: ٣). ويُنظَر إلى الروايات الإنجيلية لمعمودية المسيح ليس باعتبارها الإعلان العمومي عن بنوَّته الإلهيَّة فحسب؛ بل أيضًا كاستعلان للثالوث للحواس البشرية حيث يقول القديس إن الآب استُعلن لحاسة السمع بواسطة الصوت الإلهي، والابن لحاسة اللمس، والروح القدس لحاسة البصر في هيئة جسمية مثل حمامة (عن الإيمان ٥١: ٧).

فإن الصفة الثالوثية لمعمودية المسيح التقطها مار أفرآم من توجيه الرب اللاحق للرسل: «عَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالاِبْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ» (مت ٢٨: ١٩).

وينظر القديس إلى معمودية المسيح من ناحيتين مختلفتين بعض الشيء: فهي من ناحية جزء من عملية الجمع بين الله والخبرة البشرية. وعلى ذلك، فإن الكلمة الإلهي ليس فقط "لَبِسَ جسدًا"، بل إنه أيضًا "التحف بمياه المعمودية" (عن الميلاد ١٢: ٢). وفي موضع آخر يستعمل المعنى المزدوج للفعل السرياني "mad" الذي يحمل كلا المعنيين: "يتعمَّد" و"يغطس"، فإنه يصف المسيح بأنه يغطس (أو يغوص) لأجل الكنز الذي

سيُعطي الحياة والخلاص لبني آدم، فيقول:

[المسيح، مع كونه غير مائت بطبيعته،

اكتسى بجسدٍ مائتٍ، فقد تعمَّد (أو غطس)

وأخرج من الماء كنز الخلاص لجنس آدم] (عن الميلاد ٧: ١٠).

ومن الناحية الثانية، فإن رؤية مار أفرآم لمعمودية المسيح، تُظهِر بصفةٍ خاصةٍ اهتمامًا كبيرًا بربطها بالمعمودية المسيحية. ففي نشيد هام عن المسيح في نهر الأردن وفي بطن القديسة مريم يربط هاتين الناحيتين: معمودية المسيح في "رحم" الأردن والحَبَل به في رحم السيدة العذراء. فكلا الرحمين: رحم مريم ورحم الأردن، بحملهما للمسيح النور قد اكتسيا بنور من وجوده بداخلهما، وهكذا صار رحم القديسة مريم ينبوعًا لمعموديتها، وصار رحم الأردن ينبوعًا للمعمودية المسيحية:

[النهر الذي اعتمد فيه المسيح، حبل به مرةً أخرى رمزيًّا.

الرحم الرطب بالماء، حبل به في طهارةٍ وولده في عفةٍ، وأصعده في مجد.

في رحم النهر الطاهر، ينبغي أن تتعرّف على القديسة مريم ابنة البشر،

التي حبلت دون أن تعرف رجلًا، التي ولدت بدون جماع،

التي ربّت بعطية (إلهيَّة) الذي هو ربُّ كل عطية.

مثل كوكب الصبح في النهر، الكوكب الساطع في الرحم،

أشرق فوق قمة الجبل، وسطع أيضًا في الرحم.

لقد أبهر البصر عندما صعد من النهر، وأعطى استنارةً عند صعوده.

اللمعان الذي التحف به موسى النبي، أحاط به من الخارج،

في حين أن النهر الذي تعمَّد فيه المسيح اكتسى بالنور من الداخل،

وهكذا أيضًا جسد القديسة مريم الذي سكن فيه، قد سطع من الداخل]

(عن الكنيسة٣٦: ٣-٦).

(يتبع)